مسابقة الفلسفة للطلاب السنة التوجيهية (٣، ٤، ٥)

٣ - الحـــرية

للأستاذ كمال دسوقي

١ — مؤلف استيوارت مل :

تضافرت ظروف « مل » الشخصية على أن تخلق منه رجلا متعدد نواحي الكتابة ، فالتربية الشاقة التي أخذه بها أبوه كما رأيت ، وتدرجه حتى الرياسة في العمل بشركة الهند India House منذ السابعة عشرة حتى الخمسين ، ثم رفضه الاستمرار في أي عمل بعد أن انحلت شركة الهند الشرقية . فيما عدا عضوية البرلمان عن وستمنستر (١٨٦٥ — ١٨٦٨) ؛ قد أتاح له حتى وفاته سنة (١٨٧٣) من الفراغ ما تمكن معه من نشر مذهب واسع . يتضمن — عدا كثير من المقالات في مجلة وستمنستر ، ونشر مذهب بنتام وأبية طائفة من الكتب — تكون مذهباً عاماً — وإن يكن لكل منها فكرته الخاصة .

وتمدد شخصية أستيوارت مل العلمية من خطر طلاب المسابقة ، فإنه لن يتحتم عليهم أن يلموا بمل المنطق الكبير في مؤلفه الضخم System of Logic (١٨٤٣) ولا بمل الاقتصادي بحكم دراسته الأولى في كتابه : الاقتصاد السياسي (١٨٤٨) ، ولا بمل الفيلسوف الإنجليزي النزعة في كتابه « النفعية utilitaranism ، الذي جمع مقالاته (١٨٦١) ، ولا بمل السياسي في كتابه : تأملات في الحكم النيابي (١٨٦١) ، ولا بمل الاجتماعي في كتاباته عن المرأة والدين والنفعة — إلى آخره — أعني أن الكتاب الذي سيدرسه طلاب المسابقة يمكن تفهمه وحده في حدود معلومات عامة عن مل — كما يمكن — ابتغاء الاتفاق والتعمق — فصل هذا الكتاب عن بقية آثار مل » .

ومع هذا فلن يستطيع طالب المسابقة إلا أن يربط بين « الحرية » وكتاب « النفعية » على الأقل لأن هذا يبدأ حيث ينتهي ذاك ، ومع أن الحرية قد تم نشره أولا (١٨٥٩) بعد أن كانت فكرته منذ ١٨٥٤ موضع الدرس والتمحيص والنقد من المؤلف وزوجته ، فإن كتاب « النفعية » ترجع فكرته إلى مقالات كان قد نشرها من قبل تنقيحاً لمذهب أبيه وصاحبه بنتام — ولكنه لم ينشر إلا (١٨٦١) — وفوق هذا فإن مذهب النفعية لمل — كما يمثله هذا الكتاب — أوسع نطاقاً من الحرية ، لأنه يشمل الحياة الفردية والاجتماعية والخلقية والنفسية ، كما يدخل في السياسة والاقتصاد . ولذا تجد أن الناشرين الإنجليز يقدمون بين يدي مؤلفات « مل » بكتابه « النفعية » وإن كان كتابه عن الحرية أوفرها حظاً من الدقة والعناية في دراسته ، وبالتالي أهم معبر عن آراء الفيلسوف الخاصة وأكثر كتبه ذيوعاً .

لقد كان « مل » الصغير ، وهو يسمى بذلك تمييزاً له عن مل الكبير — أبيه جيمس من اتساع العقل ونفوذ الفكر بما لم يكن كثير من المؤلفين ، فحقق الأمل الذي عقده عليه أبوه في اصطناع مذهب النفعية التي ورثه وصاحبه بنتام إياه ، وإن يكن قد خرج به عما قصدا إليه بعض الشيء ؛ فإن المذهب بعد تعديل فيلسوفنا له قد قبله العامة أكثر من ذي قبل ، مع أنه لم يخل من الغموض والتناقض .

وخلاصة هذا المذهب في كلمة واحدة هي ما يتسع لها المقام هنا — ما تقول به نظرية النفعة أو مبدأ السعادة من أن الأفعال تكون صواباً بمقدار ما ترمي إلى تحقيق السعادة ، وخاطئة بقدر ما تؤدي إلى نقيض السعادة — ويعني بالسعادة happiness هنا تحقق اللذة pleasure ، وتجنب الألم pain ، كما يعني بالشقاء ، تحقق الألم ، وامتناع اللذة . ويقوم هذا المبدأ على فكرة اللذة النفسية psychological hydonism التي تفترض رغبة الإنسان بفطرته في أن يحقق لنفسه أكبر لذة ممكنة ، وأن يجتنبها كل ألم ، على ألا يتعارض في رغبته مع رغبات غيره ، وعلى أساس التضحية بالسعادة الفردية في سبيل سعادة المجموع ، والسعادة العاجلة انتظاراً لسعادة أكبر منها آجلة . أي تقديم الكيف quality في نشدان هذه السعادة على الكم quantity وأخذها بأوسع معانيها بالنسبة لكائن متطور .

ولكي تفهم هذه النظرية — وغيرها من نظريات مل — ينبغي أن تقرنها بالنظرية التي يعارضها بها المؤلف قديماً وحديثاً — فإن مؤلفنا كان حريصاً أشد الحرص على أن يميز نظرياته عما يسبقها ، وأن يبين وجوه الشبه والخلاف بينها وبين غيرها — كما كانت طريقته في الكتابة أن يشرع بعد تعريف موضوع

كتابه — وربما قبله — فى نقد النظريات التاريخية السابقة ، وتفنيد الآراء الحديثة الشائعة ، ثم يعرض لنظريات بنتام وأبيه ، فينقد من هذه ويعدل ماالستحق النقد والتعديل .

فهو فى مذهبه النفعى الذى يؤكده ويحوم حوله فى كل كتاباته ، ويخصص له هذا الكتاب ، انجليزى حق ، يتشبث بالواقع والتجربة المستمدة من التاريخ فى تطوره ، والأمور فى حقيقتها ، ويحمل على المبادئ المثالية العقلية ، والافتراضات الميتافيزيقية القبلية (السابقة على التجربة apriori) ونظريته هذه فى النفعية تعارض — أشد ما تعارض — نظرية « كانت » الأخلاقية ، التى تجعل من الضمير والواجب والحدس الأخلاقى أساساً للفعل . فبينما هذه النظرية مثالية تزن السلوك الخلق بالدافع عليه الذى هو أوامر قطعية يفرضها الضمير والواجب ؛ إذاً بهذه الأخرى واقعية مادية تزن السلوك بمقدار ما تحقق لنا غايته من سعادة ولذة ومنفعة .

٢ — كتاب الحرية :

ولن يعنينا أن نتبع نفعية « مل » أكثر من هذا ، ولكنا نعود إلى حيث قلنا إنه حيث ينتهى قوله فى هذه يبدأ مقاله عن « الحرية » فقد انتهت به مناقشاته لهذه النظرية إلى توكيد مبدأ على جانب كبير من الأهمية فى فلسفته السياسية ، لأنه لما جعل من المنفعة مقياساً عاماً ليقيم الأفعال ، والحكم عليها بالخطأ والصواب بما تحمل فى غايتها من تحقيق اللذة وتجنيب الألم ، تبين له أن ثمت منافع جماعية هى أكبر أهمية من المنفعة الفردية بكثير ، وأنها أولى بأن تكون مقدمة وقاطعة ، وأن هذه المنافع العامة — مع أن القانون والسلطة يقومان على حمايتها — لابد لها أن تستند إلى تأييد شعور الفرد وعاطفته وتفضيله بمحض إرادته أى إلى حريته .

ولم تنحل المشكلة بذلك حلا حاسماً ، بل إن النزاع لا يزال قائماً منذ أقدم العصور فيما بين الحرية الفردية ، والسلطة الاجتماعية نتيجة لتعارض المنفعة الشخصية والمنافع العامة المشتركة بين المجموع . واتخذ هذا الصراع بين المنافع مظاهر شتى يعرض لها بالتفصيل .

فالكتاب ككثير من الكتب قبله لأفلاطون وأرسطو — وهوبز وغيرهم التى تبحث فى فلسفة السياسة والحرية التى يقصدها المؤلف هنا ليست حرية الإرادة التى ضدها الجبرية فى الميتافيزيقا والأخلاق Determinisme بل الحرية الفردية التى ضدها السلطات الحاكمة فى السياسة والاجتماع Authorites ومدى ما لهذه الأخيرة من سلطان على الأولى ؛ فما نشأ عنه على طول التاريخ — كما قلنا — صراع ، نجد أهم مظاهره عند اليونان والرومان وفى إنجلترا ، بين طبقات الأهلين والحكومة أو بين الأهلين أنفسهم .

ذلك أن مشكلة الناس — حين يعيشون فى جماعة — أنه يلزمهم الخضوع لقانون وضعى ، أو لسلطان المجتمع ، حتى يحترم بعضهم حق بعض ، وهذه المشكلة الأساسية فى الحياة ، وإن لم يحسن الناس حلا فيما يرى « مل » ؛ وذلك لتعدد الأهواء الشخصية وتعارض المنافع الخاصة والمنفعة العامة ، ثم لسعى السادة وراء مصالحهم الشخصية ، ومحاولة المسودين تملق هؤلاء السادة بفعل ما يحبون ، وما يظن أنهم يحبون ، وبغض ما يكرهون أو يبدو أنهم يكرهون ، ما تزال مشكلة كل عصر وإن كانت تبدو فى صور جديدة متغيرة .

وقد تتساءل : ولم تتعارض رغبات الفرد ورغبات المجتمع ، وما دخل السلطات الحاكمة فى هذا التعارض ؟ فاعلم إذن أن الناس يختلفون فى رغباتهم كما وكيفا ، وأن الناس وإن اتحدت رغباتهم أفراداً ، فإنه يتكون من مجموعهم « مجتمع » له هو الآخر رغبته الخاصة التى تختلف عن رغبة كل فرد على حدة — مع أنه فى حقيقة الأمر ليس إلا مجموع هؤلاء الأفراد — فثمت تعارض أبداً بين رغبات الفرد وبين « مجتمع » الأفراد ، وتمتد هذه العداوة إلى الحكام أنفسهم بوصفهم ممثلى هذا المجتمع والمعبرين عن رغباته ، بمعنى أن عداوة الفرد للمجتمع الذى ينازعه لذته ومنافعه تتجسم شخص الحكام أنفسهم القائمين على حمايته وتنعقد المشكلة أكثر حين تتدخل فى الأمر رغبات الحاكم نفسه كفرد — بأن تكون له لذاته ومنافعه وأهواؤه الفردية — إلى جانب ما يقوم عليه باسم المجتمع .

وباسم هذه الحرية الفردية فى التفكير والنقاش واستقلال الشخصية وصلاح المعيشة يتحدث « مل » فى الفصول الثلاثة الوسطى من كتابه ، فيمهد لها بمقدمة ، ويلحق بها تطبيقات مما سنفصل القول فيه فى المقالتين التاليتين

كمال رسوقى